البادية والحرب

كان قتيبة بن مسلم قائدًا من نوابغ القادة المعدودين الذين أنجبتهم الأمة العربية في صدر الإسلام.

وكان يلي خراسان لمولك الدولة الأموية، فخرجت بها خراجة أهمته، فقيل له: (ما يهمك منهم؟ وجه إليهم وكيع بن أبي مسعود فإنه يكفيكهم) فأبى، وقال: (لا... إن وكيعًا رجل به كبر يحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قلَّت مبالاته بعدوِّه فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غرَّة...).

وهذه كلمة من كلمات القائد العربي تنبئ عن كثير:

تنبئ عن ملَكَة[١] السيادة في الأمة التي نشأ منها واستطاعت بها أن تسوس الأمم في الحرب والسلم، سياسة للنجاح وللبقاء..

فالحقُّ أن شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة[٢] فيها جميعا، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد عن القدرة على سبر قوَّته وسبر قوة خصمه، وكلُّ ما عدا ذلك فإنما هو ترتيب لما يصنعه بقوة وما يتوقع من القوة التي ينازلها أن تصنعه، أو هو تنظيم للأهبة والحيطة بين الفريقين في المكان الذي يتلاقيان فيه.

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسباب كثيرة: منها ضعف العقيدة واختلال النظام ونقص القيادة، وانحلال الترف وتفرق الآراء،

---

(١) موهبة فطرية.

(٢) المسئولية.

obeikandl.com

ولكن البلاء الأكبر إنما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل والاستخفاف بالخصم المقاتل، فانتصر العرب لأنهم ظنوهم لا ينتصرون ولا يهتزمون الانتصار، وكان الاستخفاف والإهمال شرا على تلك الدول المتصلفة من الاستهوال والفزع، بل كان الاستخفاف والإهمال سببًا لانقلابهم آخر الأمر إلى استهوال يحذل المفاصل وفزع يفت في الأعضاء، فاجتمعت عليهم البليتان من سوء التقدير، ولم تنفعهم قل المبالاة بالعدو ولا فرط المبالاة به بعد الأوان.

كانت دولة الفرس لا تنظر إلى البادية العربية إلا نظر السيد المبجل إلى الغوغاء المهازيل[1] الذين يحتاجون إما إلى العطاء وإما إلى التأديب، وبلغ من طغيان كسرى حين جاءته الدعوة المحمدية أن بعثت إلى النبي العربي بشر ذمه من الجند تأتيه به في الأصفاد، وبلغ من طغيان جنده عامة وخاصة أنهم كانوا يأنفون أن يقرننهم أحد بالعرب في معرض من المعارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيدة، فاتفق في بعض وقعات العراق أنَّ زعيمًا عربيًّا من جبرةِ الفرس أقبل على القائد الفارسي مهران بن بهرام، ليمدَّه بأبناء قبيلته ويعينه على خالد بن الوليد وجنده، فقال له: (إنَّ العرب أعلَم بقتالِ العرب، فدعنا وخالدًا)، فجاراه القائد الفارسي مجاملةً وخدعةً ليستخلص منه أقصى العون والنجدة، قال له: صدقت لعمري! لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا في قتال العجم... فغضب أتباعه لمجاملته هؤلاء القوم الذين يعينونهم ويقاتلون في صفوفهم، وسألوه: كيف تقول ما قلت لهذا الكلب؟ فلم يهدأوا عنه

(١) الحقيرون.

حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرر بهم، وقال لهم: (دعوني فإني لم أرد إلا ما هو خير لكم وشرٌّ لهم... فإن كانت لهم على خالد فهي لكم، وإن كانت الأخرى لم يبلغوكم – أي المسلمون – حتى ينتهوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون...).

وسخفوا في طلائع وقعة "أليس" فلم يحفلوا بجيش خالد الزاحف إليهم وتنادوا إلى طعامهم الذي هيَّأوه، ولم يكلِّفوا أنفسهم قبل ذلك مشقَّة استطلاع الطريق! ليأمنوا البغتة قبل تهيئة الطعام.

أمَّا الروم فكان لهم غرور في مواجهة البادية العربية، وكان قصارى ما حذروه في أول الأمر أن يغير العرب على تخومهم لينبهوا ويسلبوا ثمَّ يفرُّوا بسلبهم إلى الصحراء.... فإن أوغلوا في بلاد الدولة الرومانية فهم مأخوذون بالهبات والوعود أو مأخوذون بالكثرة المستعدَّة لا يقوم لها جند قليل ويوشِكُ أن يتجرَّد من السلاح بالقياس إليهم، فلما جدَّ الجدُّ وعرفت الدولة الرومانية من تقاتل من أولئك الجند العزل على زعمها إذا هي تنقلب من الغفلة الشديدة إلى الفزع الشديد.

ويبدو لنا أن المؤرخين المحدثين لم يبرئوا كل البرء من هذا الخطأ القديم، فما يزال الأكثرون منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم، ويحسبون هذه الغلبة شيئًا قد حصل وكان ينبغي أن لا يحصل، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها ومصادفة لا تقبل التكرار.

وبعضهم يلتمس العلة فيقول: إنما هي وَهَنُ الدولتين ومصابهما بالخور والانحلال أو يلتمس العلة فيقول: إنها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم إلى مثل هذه العقيدة.

وكلُّ أولئك تعليل ناقص من بعض نواحيه.

فالمصادفة لا محلَّ لها في حوادث الوجود ولا تطرد في قتال بعد قتال، من جوف الصحراء إلى عمران العرق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين أفريقية والصين.

وانحلال دولة من الدول قد يفتيها ويعجزها عن النصر ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكين.

والعقيدة قوَّة لا غناء عنها بقوَّةٍ أخرى لمن يفقدها ولكنها هي وحدَهَا لا تغني عن الخبرة والاستعدادِ، ولا تفسِّر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقوَّادِ وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادي حنين، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلَّة مبالاتهم بعدوهم، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص لهم من الرجوع إليها لفهم الغلبة الإسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية، وهذه الحقيقة هي أن المسلمين كانوا أيضًا أخبر بالفنون

العسكرية من أهل فارس والروم وكانوا أقدر على تنفيذ الخطَطِ العسكرية التي تنفعهم من قوَّاد تَيْنَكِ الدولتين، إنَّ البادية العربية سواء في عصور الجاهلية أو صدر الإسلام لم تكن من الجهل بفنٍّ الحرب بتلك الحالة التي توهمها المؤرِّخون الأوروبيين، بل معظم المؤرِّخين عامَّةً ولا نحاشي منهم الغرب والمسلمين.

فالصورة الشائعة في خيال أكثر القارئين عن البادية أن حروب الصحراء لم تكن إلا مشاجرةً بالسيوف والرماح أو بالقسي والمقاليع، لا ترجع إلى نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها فنّ يتعلمه المتعلم ويتلقاه اللاحق عن السابق، وقوام أمرها شراذم من السطاة والمغيرين سرعان ما تقبل تدبر، وقصارى ما تعرفه من أسليب القتال أن تفر بعد الكر أو تكر بعد الفرار.

وهذه صورة مضلِّلة لمن يسترشد بها في اختبار قدرةِ البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة.

فمن الخطأ "أولا" أن تستخفَّ بالرياضة التي يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه المناوشات، أو على ما نسميه اليوم حرب العصابات، حتى لو صحَّ أنها كانت هي كل ما يعرفه أهل الصحراء من فنون القتال.

فالذي لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال على حروب العصابات التي تشترك فيها القبائل أبدًا بين عادية ومعدو عليها، وأن البدويَّ قد عاش زمنًا كما جاء في التوراى "يده على كل إنسان ويد كل إنسانٍ عليه". فحصل من ذلك على ملكَةٍ مطبوعة يصح

أن تسمى "حاسة الحرب" أو أهلية الميدان الخالد التي لا تفارقه في ليل ولا نهار، فلا يزال حياته في حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظةِ القلب للنضال الذي يتعرَّض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار.

وهذه ملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخرى، ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدَّى في مكان العمل ثمَّ يطرح عن العاتق في سائر الأوقات.

ومن الرياضة التي يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب حروب العصابات أنهم يتعودون الصبر على الفرار ويملكون الجأش عند الإدبار؛ لأن الفرار عندهم حركة من الحركات المألوفة في كل وقعة يخوضون غمارها، وليست هزيمة تطيش باللبِّ وتخلع الفؤاد وتوقع في روع صاحبها أنه ضيع الأمل ولم يبق له من أطوار القتال غير التسليم، فهو في حالة صالحة لاستئناف القتال إن أقبل و وإن أدبر، وسواء طمع في النصر أو لاذ بالنجاة، وكأنَّه يتأخَّر ليتقدَّم في حينها أو بعد حين، ويتحول إلى الوراء كما يتحول إلى الشمال أو اليمين، طوعا لأمر مقصود وجريا في عنان ممدود، ومن هنا تيسَّر لقواد العرب في الغزوات الكبيرة أن يلمُّوا شمل الجيش المنهزم في سويعات معدوداتٍ وأن يتداركوا الخذلانَ من حيث يعسر على الجيوش المنظمَّة أن تتداركه قبل زمن طويل.

ولن تخلو الصعبات المغيرة – مع طول المرانة – من علم بأصول الاستطلاع والمباغتة والتثبيت والمخاتلة وحسبان الحساب للرجعة

والإفلات، وهى على بسطاتها أصولٌ لا ندحة عنها في أكبر الميادين وأصغرها على السواء.

هذا وإن صحَّ أنَّ حروب العصابات هي كلُّ ما حذقه عرب البادية من فنون القتال في تاريخهم القديم وذلك غير صحيح.....

فالعرب قد عرفوا في حروبهم التي وقعت بينهم تسيير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الأسلحة والأقسام، وقيلَ أنَّ جيش الغساسنة الذي حارب المنذر بن ماء السماءِ[1] لم يكن يقلَّ عن أربعين ألفًا بين راجل وفارس، وكان في الجيش معًا راكبو الخيل وراكبو الإبل وحاملو السيوف وحاملو الرماح والضاربون بالسهام والنبال والضاربون بالحراب والحجارة.

ولقد كان الغساسنة والمناذرة أصحاب مُلكٍ قائم لا يعسُر عليهم تسيير هذه الآلاف المؤلفة إلى الميادين القريبة، ولكن القبائل التي لم تكن على شيءٍ من هذا الملكِ كانت تسوق الألوف للقاءِ أمثالها وتستعدُّ لها بالجيوش التي تساوي في عدَدِهَا بعض جيوشِ القتال في عصرنا الحديث، فاستعدَّت مذحج لقتال تميم يوم الكلاب الثاني بثمانيةِ آلافٍ، وجرى بين الفريقين من حيل الاستطلاع والمراوغة والهجوم والمطاردة ما هو محتوٍ لكلِّ عناصر الكفاح الأولى في كلِّ زمان.

على أنَّ البادية لم يفتها قطُّ علم الحرب كما علمته دول الحضارة في عصور الجاهلية العربية، فكانت غسَّان على مقربةٍ من الروم تدخل

(١) هو مؤسس مملكة الحيرة العربية وهو أبو الملك النعمان بن المنذر الشهير.

معهم في الفرق المتطوعة على حالَيِ الدفاع والهجوم، وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس تخدمهم أحيانًا كتيبتان من الجيش الفارسي هما الشهباء والدوسر أو "الدوشير" بمعنى الأسدين شعار الدولة الفارسية، وكان جند الشهباء من أبناء الفرس وجند الدوسر من أبناء القبائل العربية، وليس يحتاج العربي إلى أكثر من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط الفنون التي يحتاجها إليها في تعبئه الجيوش وللفطنة إلى المخاوف التي يتقيها في مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة.

وقد تبين هذا فعلًا في وقعةِ ذي قارٍ التي تغلَّبَ فيها العرب على الدَّولةِ الفارسيَّة، فإنَّ العرب كانوا في تلك الوقعة أبرع قيادة وأخبر بفنونِ الزَّحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية، فلم يغفلوا قطُّ عن حيطةٍ واجبةٍ أو حيلةٍ نافعةٍ قبل اشتباكهم بالجيوش الفارسية، بعثوا الطلائع وبثوا العيون وقسموا جموعهم إلى ميمنةٍ تولَّاها بنو عجل، وميسرةٍ تتولَّاها بنو شيبان وقلب تولَّته بطون من بكر عليهم رئيسهم القدير هانئ بن مسعود، وأنفذوا إلى قبائل العرب الذين في جيش الفرس رسلًا يثيرون نخوتَهم ويغرونهم بالتخلِّي عن أصحابهم حين يجد الجدُّ ويلتحم الجيشان، فوافقتهم إياد وبرت بوعدها فولَّت من الميدان في أحرج الأوقات.

ولما أصبح يوم الوقعة الحاسمة أقبل الفرس ومعهم الأفيال والفرق المدرَّعة فلم يرع قادة العرب ما شاهدوا من ذلك الجيش الزاخر وتلك العدَّة الوافية، بل تشاوروا في أمرهم وعقدوا بينهم ما يشبه

"مجلس الحرب" في اصطلاح هذه الأيام، فقال ربيعة بن غزالة السكوني: "لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها، ولكن تكردسوا كراديس، فإذا أقبلوا عل كردوس شدَّ الآخر". وقال حنظلة ابن ثعلبة: "أنَّ الشاب الذي مع الأعاجم يفرِّقكم، فإذا أرسلوه لم يخطئكم، فعالجوهم اللقاء، وابدؤهم بالشدَّة ". وقال يزيد بن حمار: "أكمنوا لهم كمينًا" ففعلوا وأكمنوه في موضع يقال له الخبيء وأوصوه أن يظهر حين يستحر القتال بين العسكرين وتفرُّ قبيلة إيادٍ من صفوف الأعاجم، فيكون فرار أنصارهم وإقبال المدد إلى خصومهم، مع احتدام القتل، ضربين متداركتين لا يقوون بعدهما على الثبات.

ولم يغفلوا عن حميَّة الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والأنفة من طلب النجاة، وهو ما نسميهِ اليوم بالروح المعنوية، فعمد حنظلة بن ثعلبة إلى وضين راحلة امرأته – أي حزامها – فقطعه، وتتبع رواحل النسا فقطع وضنها جميعًا سقطت على الأرض، وصاح بقومه: ليقاتل كلُّ رجل منكم عن حليلته، وراح السيَّافون يقطعون أقبيتهم من مناكبها لتخفَّ أيديهم لضرب السيوف، وتسابق الخطباء والشعراء في التذمير والتحريض فذهبوا جميعًا يردِّدون قول قائلهم: "المنيَّة ولا الدنية"، و"استقبال الموت خير من استدباره".

وتبارز بعض الفرسان من العسكريين ثم التحم الفريقان وحمى الوطيس وظهر الكمين في أوانهِ وولَّت إياد فتبعها فريق ممن كسرت فقلوبهم هذه الصدمة التي فوجئوا بها على غير رقبة، وأطبق الكمين على قلب الجيش ومعه كوكب الجيش العربي كلِّه فحقَّت الهزيمة العاجلة

على أقوى الجيشين، وكتب النصر لأولى الفريقين به في ميزان الفنِّ العسكري الذي يشمل جميع المرجحات، ما عدا المرجح المادة دون غيره وهو العدد والسلاح.

إذ الحقيقة أنَّ غلبة العرب في يوم ذي قارٍ إنَّما كانت غلبة لليقظة على الغفلة وللكفاية على العجز، وللخفَّة على الفخامة، وللفنِّ الربِّي الصحيح على النظم التقليدية التي لا تصرف فيها، وللعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة، وكان العرب خلقاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصر في الحروب القديمة والحروب الحديثة، ألا تفوق الفرس في بعض العدد التي لم ينفعهم تفوقهم فيها عند التحام الصفوف.

وليس في وسع عالم من علماء الحرب في زماننا هذا أن يأخذ عليهم خللًا في خطتهم ولم يلتفوا إليه أو يحصي عليهم وجها من وجوه التدبير قصَّروا فيه، لأن وجوه التدبير كلها فضول بعد أن تستقيم للمقاتل.

١- أهبة الاستطلاع.

٢- رسم الخطة.

٣- تنظيم الجيش في مواقفه.

٤- تنظيم الجيش في حركاته.

٥- إذكاء العزيمة في نفسه.

٦- إضعاف العزيمة في نفوس خصومه.

وهذه كلها هي صفوة لباب الحرب في العصر الحاضر وفى العصور الغابرة، وفى جميع العصور إلى آخر الزمان.

ويبدو لنا أنَّ مزية الفرس والروم في أنواع الأسلحة والعدد كانت مزية مبالغًا فيها على الأقلِّ في ميادين الاشتباك والالتحام، إذ صحَّ أن لها الرُّجحان في مواقف الحصار ومواقف الحرب من بعيدٍ؛ لأننا عرفنا من أخبار الحروب الماضية أنَّ بعض الفرسان البواسل كانوا يترجلون ليحكموا الضرب والحركة، وكانوا يخلعون عنهم شكتهم تبرمًا بها وتخفُّفًا من ثقلها ولاسيِّما في أيام القيظ أو في المواضع الوعرة التي تصعب فيها حركة المدرعين في الشَّكة السابغة، وكان بعض الضباط من النبلاء يستصحبون خدمًا لهم يحكموا لهم شكَّتهم إلى حينِ الحاجَةِ إليه ـ وجاء في كتاب فيجتيوس (Vegetiyus) إنجيل الحرب عند الرُّومان الأقدَمِين أنَّ الجنود كانوا يضيقون ذرعًا بالدِّروع المعدنية وسيستثقلونها ويودُّون لو يطرحونها ويتاح لهم العمل بغيرها، ولم تكن لهم حاجةٌ بها إلا حين يرادون على الاقتراب من مواقع السهام والنبال والحراب الطويلة، لأداء عمل من الأعمال.

وعندنا أنَّ العرب قد كسبوا الطريقتين معًا بنشأتهم في البادية واقترابهم من دول الحضارة، ونعني بهما طريقةَ العصابات وطريقة الجيش في إدارة الحروب.

فهم قد برعوا في حرب العصابات بالمرانةِ الطويلةِ، ثمَّ اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم، فلم يخسروا بذلك إحدى الطريقتين بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيده كل منهما في موضعها، فأضافوا سرعة العمل في طريقة العصابات إلى إحكام التنظيم في طريقة الجيوش، وكانوا يقاتلون بفنين متساندين

يأخذون منهما ما يأخذون ويدعون منهما ما يدعون ، حيث كان الفرس أو الروم يتقيدون بفنٍّ واحدٍ على التراث المحفوظ الذي لا يحسنون التجديد فيه.

ومن المحقَّق أن قبائل العرب التي أقامت في الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيب الأوفى من كلتا الطريقتين، إمَّا بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود، ولاسيِّما قبائل قريش التي كانت تقيم في عاصمة العواصم العربية من الوجهة الأدبية والثقافية، وكانت تجمع كلَّ ما تفرق بين أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات، لأنها أخذت نفسها بآداب الرئاسة المدنية والبدوية التي يدين بها جميع هؤلاء.

فالتاريخ الصادق يتقاضانا أن نعرف هذه الحقيقة لنعرف موقع العدل والإنصاف من حكم الزمن بين الأمم الكبيرة التي تنازعت السيادة بعد ظهور النهضة العربية.

فالنهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقُّون الهزيمة وكفى، بل هي قد انتصرت لأنَّها كانت تستحق النصر بأسبابه التي لا مصادفة فيها ولا محاباة، ولا محل فيها لفتله ادرة لا تقبل التكرار.

وإنَّما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فنمت في أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها ؟.

كانوا متفرِّقين بغير باعث إلى الوحدة والنهوض، فجاءتهم الدعوى الإسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم في سبيلهم فتمَّ لهم ما نقص وتهيَّأت لهم ذرائع النصر في شرعة الأرض

والسماء، وعلم النبي عليه السلام بيوم "ذي قار" وهو يدعو العرب إلى دين التوحيد، رأى فيه بوادر نصر العرب على العجم، وأيقنَ أنَّه يوم تتلوه أيَّام، وأنه مسمع بدعوة الأمم جميعًا عمَّا قريب.

obeikandl.com